كلمة توجيهية في تجديد النذور الرهبانية

عيد مار انطونيوس الكبير
دير سيدة اللويزة – زوق مصبح
في ٢٠٠٦/١/١٧

الراهب الماروني المريمي
والتتلمذ للمسيح

"إن الذين وهبتهم لي، أريد أن يكونوا معي حيث أكونُ فيعاينوا ما وهبت لي من المجد". (يو ٢٤/١٧).

إن العودةَ الأولى الى كلمة اللهِ في الإنجيلِ توضح لنا منبع الدعوة، ومن هو الذي يدعو، والهدف من دعوته هذه وما هي متطلبات دعوته.
نحن نعلم جيداً أن مصدر دعوتنا هو يسوع المسيح، يسوع هو المبادر الأولُ لا التلاميذ، "لمْ تختاروني أنتم بل أنا اخترتكم وأقمتكم" ويتبين لنا من كلامِ الإنجيلِ أن يسوع المسيحِ يدعو بسلطان، مثلِ فعلِ: "أقام منهم" وخاصةً عندما يقولُ للشاب الغني "اذهب، بِع كل شيءٍ...،وتعالَ اتبعني".
كان يسوع يتصرف عادةً بسلطان، وقد تنبه الإنجيليونَ الى سلطانِه هذا في تعليمه مثلاً: "أُعجِبوا بتعليمه، لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان، لا مثلَ الكتبة..." وكذلك في معجزاته "إن الأرواح النجِسةَ يأمرها فتطيعه" (مر ٢٢/١ و ٢٧).
كان يسوع يستخدم سلطانه هذا عندما كان يعيش على أرضنا، وكذلك عندما يدعو اليوم. ولكننا سنرى أن أثَر سلطانِه مختلف هنا وهناك:
ففيما كانت الأرواح النجِسةُ والرياح والبحار تطيعه، كانت دعوته موجهةً الى أشخاصٍ يتميزونَ بحرية، أن يلبوا دعوته أو أن يتمهلوا فيها أو أن يرفضوها. واليوم أيضاً، بإمكان أي إنسان يدعوه يسوع بسلطان أن يستجيب لدعوته، أو لا يستجيب.
إن نوعيةَ هذه الدعوة هي مجانِية، "دعا الذين أرادهم"- "أقام منهم اثني عشر" – "أنا اخترتكم". فلا مبرر لدعوة يسوع لهذا أو ذاك، إلا اختيار يسوع له بِمحضِ سلطانِه.
أن الكتاب المقدس يظْهر دائماً مجانيةَ اختيارِ الله. فقد اختار شعب إسرائيلَ لا شعباً آخر، اختار اسحق لا إسماعيل، يعقوب لا عيسو، يوسف لا أحد إخوته، داود لا أحد إخوته... وهكذا في العهد الجديد تصرف

يسوع عندما اختار تلاميذَه الاثني عشر اختياراً مجانياً، وهكذا يفعلُ اليوم معنا في اختيارِ كل واحد منا في الرهبانية المارونية المريمية وليس في رهبانية أخرى.

فهذا الاختيار ليس فيه مدعاةٌ للتكبرِ أو للشعورِ بالظُلم، بل هو دعوةٌ للتعجبِ بإيمان أمام اختيارِ الله المجاني هذا. ونحن الرهبانَ المريميين يزداد اندهاشنا وعرفانُ جميلنا وشكرنا لله الذي يدعو كل واحد منا دعوةً مجانيةً لا مبرر لها إلا حبه لنا. فليس المدعو أفضلَ من غيرِه ولا هو يستحق أن يدعوه الرب هو أكثر من سواه، ولكن دعوة الله لنا هي دعوةٌ مجانِيةٌ تثير الإعجاب وتدعو الى التعمقِ في هذا السر المجّاني بإيمان والتزام.

وهذا ما اختبره بولس: " فاعتبِروا، ايها الاخوةُ، دعوتكم، فليس فيكم في نظرِ البشرِ كثير من الحكماءِ، ولا كثير من المقتدرين، ولا كثير من ذوي الحَسبِ والنسب. ولكن ما كانَ في العالمِ من حماقة فذاك ما اختاره اللهُ ليخزِي الحكماءَ، وما كانَ في العالمِ من ضعف فذاك ما اختاره الله ليخزِي ما كان قوياً، وما كانَ في العالمِ من غيرِ حسبٍ ونسبٍ وما كان محتقراً فذاك ما اختاره الله: اختار غير الموجود ليزيلَ الموجود، حتى لا يفتخر بشر امام الله. وبفضله انتم قائمونَ في المسيح يسوع الذي صار لنا حكمةً من لُدن الله وبِراً وقداسةً وفداءً ليتم ما ورد في الكتاب: "من افتخر فليفْتخر بالرب". (١قور١/٢٦-٣١).

إن هدف دعوتنا هو العلاقةُ مع يسوع. ومما يُلْفت النظَر، أن مضمونَ اختيارِ يسوع يختص أساساً بعلاقة المدعوين الشخصية معه، ثم برسالة يكلّفُهم بها:

إن نوعيةَ هذه العلاقة بيسوع هي مميزةٌ: "أقبلوا إليه"(مر٣/١٣)، يصحبونه"(مر٣/١٤)، "يتبعانِه"(يو١/٤٢)، "أقاما عنده" (يو١/٣٩)، "وجدنا المسيح"(يو١/٤١)، "أحبائي، أطلعتكم"(يو٥١/١٢-١٧). وعلى خلاف ذلك، قالَ يسوع للرجلِ الممسوس: "إرجع الى بيتك".

يتبين لنا من هذه الكلمات أن هناك نوعيتين متكاملتين للعلاقة التي تربِطُ المدعوين بيسوع: الاتباع والتتلْمذُ.

الاتباع: هو في الذهابِ إلى المسيح والإقبالِ إليه وصحبته، وتدل هذه العلاقةُ على حركة دينامية والسيرِ معه على الطريق.

التتلْمذُ: هو في إيجاده، رؤيته والسكنِ معه، في علاقة الأحبة، وفي الاطّلاعِ على أسرارِ الآبِ، وكُل ذلك ينم عن حميمِ العلاقة الشخصية الوجدانية.

اتباع المسيح والتتلمذُ له والاقتداءُ به: هذا ما يميزنا بدرجة أولى نحن الرهبانَ. هذا يعني أنه لا حياةَ رهبانية، ولا رهبانَ، إن لم يكنِ المسيح في الصميم، وإنْ لم تكُن حياته وموته وقيامته مثالاً يقتدى ونموذجاً يتبع. يقولُ القديس انطونيوس في إحدى رسائله الموجهة الى تلاميذه: "... ومن أجلِ أبيه أراد المسيح الطاعةَ حتى الموت، الموت على الصليبِ (فيليبي ٢/٨)، لكيما بموته يحقق لنا حياتنا وينتصر على الشيطان صاحبِ سلطان الموت، وإذا تحرّرنا بمحبته نصبح تلاميذَ يسوع وبه نحصلُ على الميراث".

إن حقيقةَ الدعوة الرهبانية تكمن في أن الآب يختار ويجذب ويهب لابنِه تلاميذَ ليصحبوه. ان الابن يجذب اليه المدعوين الذين وهبهم الآب له(يو١٧/١-٢). "ما من أحد يستطيع ان يقبِلَ الي إلاّ بهبة من الآب"(يو٦/٦٦).َ إن الراهب هو هبةٌ وهديةٌ من الآبِ لابنه يسوع المسيح. وهكذا يدخلُ الراهب في صميمِ

علاقة حب الآبِ لابنِه الحبيب. فعندما يختار الاب راهباً منا، فإنما هدفُه من ذلك شخص ابنِه. وكما أنه يحب ابنه الحبيب فيهديه تلاميذَ، فإنه يحب تلاميذَ ابنه هؤلاءِ حبّه لابنِه. فلذلك يصور لنا لوقا يسوع وهو يصلّي قبل اختيارِه لتلاميذه (٦/١٢-١٣) تعبيراً عن أن الآب هو مصدر ومنبع اختيارِ تلاميذ المسيح.

فهو يختارنا "من بينِ العالمِ" فنحن لا نظّل "من العالم" (يو ١٥/١٩).

هكذا، فإن الدعوةَ الرهبانيةَ هي دعوةٌ الى التمثّلِ بيسوع المسيحِ في علاقته بالعالم: فنحن على مثاله "في العالم" ولكن "لسنا من العالم"، نحن "في المجتمع" وفي خدمته، ولكننا لسنا "منه" وما نذورنا الرهبانيةُ الثلاثةُ، الطاعةُ والتبتلُ والفقر، سوى التعبيرِ عن هذا التمثّلِ بيسوع المسيحِ الفقيرِ والمتبتلِ والمطيعِ، في علاقته بالعالمِ ولا سيما عالمِ الماديات ويرمز إليه بالفقرِ، والأشخاصِ ويرمز إليه بالتبتل، والذّات ويرمز إليها بالطاعة لآخر.

ونحن في عيشنا الرهباني كجماعة وفي رسالاتنا، نستنتج أن العلاقةَ مع شخصِ يسوع هي الأساس فلا نقوم برسالة إلا وهي تنطلق من يسوع المسيحِ وتتأسس على شخصه والعلاقة معه. ومعنى ذلك أن الاتباع والتتلمذَ هما أساس الرسالة. فليست الحياةُ الرهبانيةُ خدمةً، بل هي علاقةٌ شخصيةٌ مع يسوع المسيحِ، وإذا خدم الرهبانُ، فتعبيراً منهم عن متانة العلاقة الشخصية التي تربطُهم وتوحدهم به. لذلك، فلا يترهبن راهب من أجلِ الخدمة، بل من أجلِ العلاقة المجانية مع يسوع لاتباعه وللتتلْمذ له. وأما الرسالةُ، أياً كانت نوعيتها، في الرعية أو المدرسة أو الجامعة، أو الخدمات الروحية، فإنها تستقي معناها ودافعها وقوتها من منطلقِ العلاقة مع شخصِ يسوع المسيح. فما النذور أيضاً سوى التعبيرِ عن الحب ليسوع المسيحِ والرغبة في الاقتداءِ به فقيراً متبتلاً ومطيعاً.

إن الروح القدس الذي يجعلُ الراهب يكشف مشيئةَ الآب الذي يختاره، ويسمع صوت يسوع المسيحِ الذي يدعوه الى الاتباعِ والتتلْمذ، إن الروح هذا، يجعلُ الراهب يتجاوب مع اختيارِ الآب ودعوة يسوع المسيح، إن الروح يجذبه نحو شخصِ يسوع ليتجاوب معه فيستجيب لدعوته. إن التجاوب الشخصي هذا أساسي لأن الله يحترم حريةَ اختيارِ الإنسان.

إن يسوع المسيح يعرض ولا يفرض دعوته على الذي يدعوه. فإنه يحترم حريتنا. فنرى في دعوته للشاب الغني الذي أحبه (مر ١٠/٢١) بقوله "إذا أردت أن تكون كاملاً..."

(متى ١٩/٢١) فيسوع ينتظر رد المدعو رداً حراً. وقد حدثَ أن الشاب قد رفض الاستجابةَ لدعوة يسوع، على خلاف الاثني عشر الذين تجاوبوا معه فتبعوه وتتلمذوا له.

في الإنجيلِ مشهد رائع يظهر لنا من جهة احترام الله لحرية الإنسان، ومن جهة أخرى حريةَ المدعو في تجاوبِه مع دعوة الله، ألا وهو مشهد بشارة الملاك لمريم العذراء (لو ١/٢٦-٣٨).

فبعدما "داخلَها اضطراب" في وجدانِها، استفسرت بعقلها، كيف ستتحقق أمومتها وهي عذراءُ، ثم تجاوبت مع دعوة الله- بإرادتها الحرة- إذ قالت: "أنا أمةُ الرب، فليكن لي بحسب قولك".

وأيضاً القديس بطرس تكلّم باسمِ الرسلِ الذين اختاروه اختياراً حراً "يا رب الى من نذهب...؟" (يو ٦/٦٦-٦٨).

وقد هتف بولس في نوعية هذه العلاقة مع شخصِ يسوع المسيح: "الحياةُ لي هي المسيح" (فل ١/٢١).

إن جوابنا الحُر على نداءِ المسيحِ يتطلّب منا أن نجددها كل يومٍ وأن نعيشها في رسالتنا وفي حياتنا الجَماعية، في الصلاة وفي عيشنا المشورات الانجيلية.

أبائي الاجلاء ، اخوتي الاحباء،

كل سنة وفي عيد مار انطونيوس الكبيرِ نحن مدعوونَ الى الوقوف أمام ذواتنا، بجردة حسابٍ كيانية، أين نحن من دعوة المسيحِ لنا، وهل نتجاوب ونجدد العهود بحرية؟. هذا السؤالُ، إخوتي، اطرحه على ذاتي أولاً وأطلب من الجميع أن يفعلوا ذلك.
إن الصلاةَ من جهة، والنذور الرهبانيةَ من جهة أخرى، تعبيران حقيقيان عن التتلمذ ليسوع المسيحِ واتباعه، فالصلاةُ هي أكثر ما تكونُ من جهة التتلمذَ كعنصرٍ من عناصره، والنذور هي أكثر ما تكونُ من جهة الاتباع كعنصرٍ من عناصره.
يسوع المسيح كان رجلَ صلاة بتمامِ معنى الكلمة، لم تفارقْه الصلاةُ في أثناءِ حياته كلها، كانت الصلاةُ بمثابة تنفسه، الطبيعي، بها يتحد بأبيه ويكتشف إرادته من خلالها.
واقتداءً به، إن للصلاة مكانةً خاصةً في حياة المكرسِ لشخصِ يسوع المسيح، فلا يمكن تصور مكرسٍ دون صلاة، ولا تصور حياته الرهبانية دون هذا الغذاءِ اليومي.
سيظلُ شخص يسوع المسيحِ الوجه المركزي والمحوري والأساسي في حياتنا المكرسة في صلاتنا ونذورِنا، في علاقاتنا ونمط حياتنا.
يسوع المسيح هو ألف حياتنا الرهبانية وياؤها، بدايتها ونهايتها، مصدرها وغايتها.
ونحن اليوم نجدد العلاقةَ مع الرب على مثالِ ابينا القديسِ انطونيوس طالبين من اللهِ بشفاعة امنا مريم العذراءِ سيدة اللويزة، ان يقَدس رهبانيتنا ونكونَ له شهوداً حقيقين، ويمن علينا بدعوات تعمل في حقلِ الرب من خلالِ رهبانيتنا الحبيبة، امين.

الاباتي سمعان ابو عبده
الرئيس العام للرهبانية المارونية المريمية